دراسات تحليلية :

الجنيـــــد

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

في حاضرة الخلافة العباسية مدينة العلم والنور وبين مجالس الزهد والتقوى ومراتع اللهو والمجون ، ولد العالم الأديب المحدث الفقيـــه الصوفي المتنسك أبو القاسم[1] الجنيد بن محمد الخزاز القواريري ، ودرج في بيت أبيه لا يرى فيه من مظاهر النعمة والثراء شيئاً مذكوراً ، ولا تسمع أذناه سوى ارتطام القوارير التي كان أبوه يبيعها . ولما بلغ مبلغ الصبيان صار يذهب إلى دكان أبيه ، فكانت كثيراً ما تقع عيناه على موكب من مواكب الخليفة يسير في شوارع بغداد خارجاً لصيد أو ذاهباً إلى مسجد لأداء الصلاة تحف به مظاهر الأبهة والملك وتحيط به حاشية من وزراء وقراء وجنود وحجاب، فكانت تستهويه هذه المواكب ، وتسحره هذه المظاهر، ويتمنى — شأن كل من في مثل سنه — أن يكون كأحد هؤلاء الذين يحيطون بالخليفة ويحفون به . أو يمر على حانة من حانات القصف واللهو تختلط فيها رنة الكأس بأصوات المغنيات ، وتتعالى فيها صيحات الاستحسان من قوم سلبتهم بنت الحان عقولهم ، فيقف ينصت لما يقولون ويسمع ما به يترنمون ، فيود لو جلس بينهم وشاركهم لهوهم وفرحهم ، فإذا آب إلى بيت أبيه في أحد أزقة بغداد هاله الفرق البعيد وأخرجته مرارة الحقيقة التي تتجلى له والتي هو رازح تحت كلكلها ، من تصوراته البديعة وتخيلاته المريضة التي كان سابحا في ملكوتها ، إلى واقع حياته وحياة من يحيطون به .

ولما صار فتى ألحقه والده بحانوت خزاز ليتعلم صنعة تكون له غناء في حياته ووقاية له من الفاقة ، وكان كثيراً ما يسمع عن أسماء بعض الفقهاء والعلماء ، وأقوالهم ومجالسهم وما حباهم الله به من نور وعرفان ، فتاقت نفسه إلى مشاهدة مجالسهم وسماع أقوالهم . وذات مساء ذهب إلى إحدى الحلقات التي يؤمها كثير من طلاب العلم، وهناك جلس في ركن من أركانها قانتاً خاشعاً في وقار وتهيب وخشية وخوف ، يسمع ما يقال ولا يدنس بنت شفة ، وسحره القول وأعجبه الحديث ، فصار يتردد على هذا المجلس حتى تفتحت بصيرته وانشرح قلبه لنور ربه ، وبدأ يفهم ما يقال ويتأمل ما يسمع .

ثم سمع بإراهيم بن خالد الكلبي صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فورد عليه وأنصت لما يقول فجذبه قوله واستأثر به حديثه فلزم مجلسه . واسترعت مواظبة الجنيد وحضوره مبكراً نظر الكلبي فقربه إليه وأدناه من مجلسه ، وأعظم فيه مظاهر الورع والتقى على صغر سنه ، ورأى علائم النجابة بادية عليه ، فاتخذه تلميذاً له يرعاه ويحدوه بعنايته . ولم يقتصر الجنيد على الفقه بل أخذ من كل علم بطرف ، فكان في الأخلاق تلميذ معروف الكرخي ، وفي التوحيد تلميذ الحارث المحاسبي ...

وصار الجنيد قبلة الأنظار وهو في سن العشرين . وفي أحد الأيام قال له خاله السري السقطي وكان من أساتذته ، تكلم على الناس وعظهم حتى تفيد وتستفيد ، ولتحفظ نفسك قبل أن تعظ الناس ، فامتنع عن ذلك لأنه كان يرى نفسه ليس أهلا لذلك ، فرأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت ليلة الجمعة ، فقال له النبي عليه السلام : تكلم على الناس . قال فانتبهت من نومي وأتيت باب السري قبل أن ينبلج الصبح ، فلما دققت الباب قال لي : لم تصدقنا حتى قيل لك[1] . قال : فقعدت في هذا اليوم للناس بالجامع . ثم صار له أتباع ومريدون وأصبح أوحد أهل عصره . فقد كان يفتي في المسألة الواحدة وجوها لم تخطر على بال العلماء . سأله أحد الفقهاء عن مسألة فأجابه فيها بأجوبة لم تخطر له ، فقال يا أبا القاسم لم أكن أعرف فيها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت فأعدها علي ، فأعادها بجوابات أخرى ، فقال والله ما سمعت هذا قبل اليوم ، فأعده علي ، فأعادها بجوابات أخرى غير ذلك ، فقال لم أسمع بمثل هذا فأملها علي حتى أكتبه . فقال الجنيد : لئن كنت أجريه فأنا أمليه ، أي أن الله هو الذي يجري ذلك على قلبي وينطق به لساني؛ وليس هذا مستفادا من كتب ولا من تعلم؛ وإنما هذا من

(١) لم أعثر على تاريخ مولده بالضبط فيما تحت يدي من مراجع .

(١) وفيات الأعيان ج ٣ .

من فضل ربى يلهمنيه ويجريه على لسانى . وسمعه بعض المعتزلة فقال : رأيت فى بغداد شيخاً يقال له الجنيد ما رأت عينى مثله . كان الكتبة يحضرونه لألفاظه ، والفلاسفة لدقة كلامه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه ، وكلامه ناء عن فهمهم .

وبينما هو يسير فى الليل فى درب من دروب بغداد سمع غناء فى دار فعاد به الحنين إلى عهد الطفولة فأنصت ، فإذا جارية تقول :

إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى
تقولين : لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الجوى
تقولين : نيران الهوى شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قالت مجيبة
حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

فصاح وخر مغشياً عليه ولما أفاق ورجع إلى بيته أخذ يطيل الفكر فيما سمع ، ورن فى أذنيه قول الجارية (حياتك ذنب لايقاس به ذنب) فبدأ يتخلف عن مجلسه ويطيل وحدته ويتأمل صنائع الإله وما أبدع فى الكون وبذلك انتقل إلى مرحلة التصوف

والميثاق الذى ورد فى كتاب الله جل شأنه والذى بمقتضاه أقسمت الأرواح أن تؤمن به قبل أن تحل فى أبدانها وقبل أن يخلق الله هذه الأجسام ، هو مذهب الجنيد الذى اعتنقه ونادى به . وصاحب هذا المذهب يؤمن بوجود حقيقة الإنسان فى الوقت الذى تعهدت فيه الأرواح بالإيمان لخالقها ، وأن البدن باطل لاوزن له ولايساوى أية قيمة ؛ وأما الحقيقة الإنسانية فهى تنحصر فى الجوهر الروحانى الذى لا تشوبه شوائب المادية ، وفى هذا اليوم الذى تعهدت فيه الأرواح لخالقها بالإيمان تقرر مصير الإنسانية وتحدد نهائياً . ومن هذا اليوم اختار الله السعداء من خلقه فاصطفاهم لحضرته فانكشفت لهم الألوهية فى ذلك الوجود النقى الصافى الذى كان يحتويهم قبل عالم الأشباح ، ثم بعد أن صاروا فى عالم الأشباح لا زال الله يجذبهم إلى العودة إليه من ثنايا هذه الحياة . ولهذه العودة درجات كثيرة مختلفة ومتعددة ، ولكن أعلى هذه الدرجات وأولاها المعرفة ، وأول مبادئها التوحيد ، ثم تحديد الوحدانية الإلهية ، ولا يكون هذا التحديد حقيقياً إلا بالتنزيه وهو جحود الكيف والحيث والأين ، ولا يحظى بهذه المنزلة إلا من شاء الله له ذلك عن طريق السكر التنسكى وهو نوع من الجنون الفجائى يمن الله به على من اصطفاه فيصبح بواسطته فى حال يصدر فيها عن القول والفعل دون أن يكون مسئولا عما يقول أو يفعل . ومن يمنحهم الله المعرفة ، ويتجلى عليهم بهذه المنزلة يستولى عليهم بعنف جليل . وفى هذا يقول الجنيد عن هؤلاء الذين خصهم الله بقربه واصطفاهم لحضرته « هؤلاء هم الذين اعتزل الله بهم » .

والمعرفة عنده معرفتان : معرفة حق ، وهى إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من الصفات وما أظهر من آثار قدرته فى الأنفس وفى الآفاق . وهذه المعرفة هى معرفة المؤمنين عامة . ومعرفة حقيقة : وهى مشاهدة السر من عظمة الله وتعظيم حقه وإجلال قدره وتنزيه ربوبيته عن الإحاطة ، لأن الصمد لا تدرك حقائق نعوته وصفاته ؛ فالحق سبحانه وتعالى يشاهد من عظمته . وفى هذا يقول : « المعرفة تردد السر بين تعظيم الحق عن الإحاطة وإجلاله عن الدرك » . أما من اكتفى بظاهر الحياة وما يشاهد فى قلبه من صور ، واعتقد أنه بهذا وصل إلى المعرفة فقد خانه التوفيق وجانبه الصواب والجنيد يقول : « المعرفة أن تعلم ما تصور فى قلبك فالحق بخلافه » . لكنه وجود يتردد فى الكون ويحكم تدبيره ، لا تتهيأ العبارة عنه ، ولا تؤدى الكلمات المقصود منه . فالإنسان مسبوق ، والمسبوق غير محيط بالسابق ، فصاحب الحال قائم موجود عياناً وشخصاً وصفة ونعتاً .

والمعرفة تجعل العارف الذى تعلق بحقيقة الخالق لا يشهد حاله ، بل يشهد سابق علم الحق فيه وأن نهايته صائرة إليه ومصيره إلى ما سبق له ، ومن لم ينعم الله عليه بشهود ما سبق له من الله تحير ، لأنه لا يدرى ما علم الحق فيه ولا ما جرى القلم به ، ومن عرف ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر وتعطل عن الطلب ، فقد عرف أن الله متولى أمره . ومن عرف أن الله متولى أمره تذلل له فى أحكامه وأقضيته وسار فى طريقه مستقيما متذللا . وفى هذا يقول « المعرفة شهود الخاطر بعواقب المصير ، وأن لايتصرف العارف بسر ولا تقصير » . والعارف هو من لبس لكل حال لبوسها فيكون فى كل حال بما هو أولى وما يناسبه فلا يرى بحال واحدة ، لأن أمره ليس بيده ومصرفه غيره . ولما سئل عن صفة العارف قال : « لون الماء لون الإناء »

وكثيراً ما كان يحكى فى هذا المقام ماحدث لأبى بن كعب . قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب (إن الله أمرنى أن أقرأ عليك) فقال أبى : أو ذكرت هناك يا رسول الله ! قال نعم : فبكى أبى ولم يحالا يقابله بها ، ولا شكراً يوازى نعمه ، ولا ذكراً يقوم بما يستحقه المولى جل شأنه ، فانقطع فبكى فقال له النبى عليه السلام (عرفت فالزم) .

***

وذكر الله هو سبيل الوصول إلى الحضرة الربانية ، والهيام به هو تصريح المرور إلى مجلس الأنس الأسمى ، ولا يكون حقيقة من القلب إلا إذا استروح الذاكر حب الله وعاين الحق وعل من كأس الحبيب وسكر بخمره . وهوقوت القلوب الذى تحيا به ، وزاد الأرواح التى تتزود به ، وأنس النفوس الذى يذهب عنها الوحشة ويزيل همها وكربها ، والماء الذى يطفىء ظمأ الفؤاد ويخفف من حدة اشتعاله ، وهو الدواء الشافى من العلل والأسقام ، والبلسم المطهر لجراحات القلوب ، وهو حبل الوصل بين الذاكر والمذكور ، وسبيل القرب بين المحب والمحبوب ، وكلما ازداد الذاكر فى ذكر محبوبه استغراقاً وهياماً ، ازداد الحبيب المذكور إلى ذاكره تقرباً وإلى لقياه اشتياقاً . والذكر عنده نوعان : ذكر اللسان وهو أيسر النوعين وأقلها مشقة وأخفها عناء ، وهو ملك للجميع وفى هذا يقول:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ~~وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى~~

فإذا وافق القلب فى الذكر اللسان ، نسى الذاكر فى جنب الله كل شىء وهان عليه كل شىء وحقر فى نظره متاع الدنيا وزينتها، وطرح مباهجها وراءه ظهريا ، وتعلق بذكر محبوبه وهام به وغرق فى بحر ملكوته القدسى . ومن كانت هذه حاله حفظ الله عليه كل شىء وعوضه بلذة ذكره عن كل شىء ، ومن وصل إلى هذه الدرجة فهوالذى من الله عليه بنعمة الوصل والتعرف؛ لأن من بلغ هذا المقام فقد عرف الله حق المعرفة ؛ فنى الأثر الإلهى: (إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه[1]) وفى هذا يقول الجنيد « من ذكر الله عن غير مشاهدة فهو مفترى »

والذكر بالقلب هو أصل المحبة وعنوان التقرب لأنه يغزو قلب الذاكر وفى هذا يقول : « المحبة ميل القلوب » فالذاكر إذا أحب من يذكره مال إليه قلبه وانجذب إلى حضرته وفنى فى ذاته ، فيكون حبه من غير تكلف ، وهيامه عن صدق وإخلاص . وما دام الذاكر قد مال قلبه إلى من يذكره واتصلت به محبته فإنه يرى اللذة والسعادة فى الخضوع له والتذلل فى حضرته وإطالة الوقوف ببابه طلباً للمثول بين يديه ، والطاعة فيما يأمره به من أعمال ، ويبتعد عما ينهاه عنه ، ويرضى كل الرضا بحكمه فلا تثور نفسه ولا يضجر قلبه إذا نزل به مكروه أو حاقت به نازلة ، يفعل كل ذلك ليحظى بالقرب وينال الرضا من المحبوب ، فإن حظى بمراده وبلغ مأموله فقد طابت له الحياة وصفا عيشه ؛ لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه من المحبوب من خير أو شر . وفى هذا يقول : « المحبة لذة والحق لا يتلذذ به لأن مواضع الحقيقة دهش واستيفاء وحيرة » .

وإذا ملك الحب شغاف القلوب ، وتكشف الحال بين الحب والمحبوب ، وأصبحت المحبة تعظيما يحل الأسرار ، وقربا يحيى موات القلوب ، فإذا سمع المحب ذكر محبوبه اضطربت منه الجوارح طربا بالذكر محبوبه فيصبح فى حال من الوجد والهيام ، والمحب إذا كان ضعيفاً إعانه ضعف وجده ، وضعف الوجد ينتج حالاً من التواجد وهوظهور علامات الهيام على المحب . وأما القوى الإيمان الراسخ القدم الصافى القلب الصادق الحب ، فيكون وجده قوياً وحبه خالصاً ، ومن قوى وجده تمكن فسكن فتراه فى حال من السكر لا يفيق منها أبداً ، وهذه الحال هى حال العارفين . ولا شك أنها خير من الحال الأولى لأن كتمان الحب دليل على قدرة المحب وصبره على تحمل ما يلاقى فى سبيل حبه . وفى هذا يقول الجنيد :

الوجد يطرب من فى الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود
قد كان يطربنى وجدى فأشغلنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود

***

والجنيد صوفى متنسك وهو زيادة عن ذلك عالم فقيه محدث

(١) قرن الإنسان من ماثله سناً ، تقول هو على قرنى أى على مثل سنى ، والقرين الصاحب (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) أى صاحب ، والمراد من الحديث القدسى ، أن العارف يذكره وهو مستحضر عظمته مستشعر جلاله وقدرته .